قراءة الفن المعاصر: النقد، التأريخ، الفلسفة

نور عسلية

إن العمل على نقل المعارف المرتبطة بالفنون التشكيلية المعاصرة إلى الثقافة العربية صعب وشائك. عدا عن الأسباب التي لا تخفى على أحد من تبعات الظروف الاجتماعية والسياسية المعطّلة للتطور الفكري، تشكل طبيعة الذائقة الفنية في المنطقة عاملاً أساسياً في مرونة أو صعوبة فهم الفنون الحديثة. بصورة عامة جرت الفنون في الشرق ككل وليس فقط في العالم العربي على أن تكون منتمية بشكل وثيق إلى العناصر اليومية، فمعظم تجليات الفن غير مفصولة في هيئات فنية مستقلّة. المشكلة هنا ليست هذه الحقيقة بل بمحاولة انكارها واختلاق روابط غير موجودة لتقريبها من فن اللوحة الحديثة، مع أن هذه الحقيقة غير مخيفة بل تشير إلى خصائص وجماليات عديدة، أهمها سعة الخيال الفطري وعيش الفن بشكل يومي إضافة إلى كثافة الإنتاج. ولذا من الأجدى النظر إلى الفنون التي نشأت في الغرب دون شعور بالنقص ومحاولة الدفاع عن فنون عظيمة قائمة بغنى عن المبالغات.

وليس من المحبط أن تكون بعض الفنون قد ولدت وتطوّرت في الغرب مثل التصوير الفوتوغرافي والسينما والفيديو آرت وأعمال التركيب.. لكن المحبط اليوم هو الفجوة المعرفية خصوصاً فيما يتعلق بالفنون التشكيلية، بعيداً عن عوامل الإبداع. والمقصود بالفنون التشكيلية هو الرسم والنحت والحفر، يضم إليها بعض المتخصصين أعمال التركيب و الفيديو آرت (شخصياً أؤيد هذا التوجه).

و أكثر ما يثير الدهشة اليوم هو كم الكتابات الفضفاضة غير المفيدة. كثيراً ما أرتبك عند قراءة نصوص تزعم ارتباطها بالفنون التشكيلية لأنني لا أتمكن من تصنيفها في تخصص واضح. وأعتقد أن التخصص مطلوب ضرورةً للكتابة عن الفنون التشكيلية لأسباب أهمها ازدياد عدد الراغبين بممارسة الفن وإصرارهم على الاستمرار رغم تواضع نتاجهم مشكلين بطانة مضللة للجمهور، ولأن عملية استقبال وتلقي هذه الفنون فردية ، لا تشبه السينما مثلا أو المسرح بقدرتها على التوجه إلى جمهور أوسع في وحدة زمنية واحدة فهي بذلك أكثر تعقيداً.

وعندما أتساءل كيف بإمكاني من موقعي توضيح (كيف نقرأ الفن المعاصر)، أفكّر بتوضيح (كيف نكتب عن الفن المعاصر).

أستثني المواد الصحفية التي تقوم بتغطية النشاطات وما قد يرافقها من لقاءات صحفية مع الفنانين وهذه المواد تكون مفيدة كوثائق. وأستبعد أكثر كل الكتابات الأدبية التي تستوحي ربما من العمل الفني دون أن تفضي إلى فائدة متعلقة بالعمل ذاته رغم قيمتها الأدبية في بعض الأحيان.

تنقسم العمليات الفكرية الممنهجة التي تتخصص في الكتابة حول الفن إلى ثلاثة اختصاصات: النقد، التأريخ، الفلسفة. وتختلف هذه التخصصات بطبيعتها وبنيتها ومهامها.

يعنى تاريخ الفن بتعريف الفترات التاريخية تبعا لنقاط مفصلية أساسية، نقاط تسمح بتمييز مجموعات من المدارس أو الأساليب المتعاقبة وتحديد الظروف التاريخية السياقية و دورها في تشكيل الاتجاهات الفنية (مثلا فنون عصر النهضة أو الفن المعاصر أو الحديث أو ما بعد الحديث) و يندرج ضمن هذا الاختصاص عمليات توثيق الأعمال و الأحداث والوقائع الشخصية للفنانين و سيرهم الذاتية و ذاكرتهم الفنية، وهو فرع ينتهج الدقة و يتضمن دراسات تحليلية تهدف إلى نقل المعارف والتوصيف والتفسير بالارتباط مع الحدث التاريخي، بمعنى كيف تأثر الفن وأيضا كيف أثر الفن في التاريخ، دون الإسهاب في تقديم روابط مع العلوم الإنسانية الأخرى. تأريخ الفن بوصفه تخصصاً فكرياً مستقلاً قد نشأ في بداية القرن التاسع عشر، لكن لا شك أن هنالك جهود كبيرة سبقت هذا التاريخ وكان العديد منها على يد الفنانين أنفسهم في توثيقاتهم ومذكراتهم ورسائلهم.

أما **فلسفة الجمال أو الإستطيقا** (l'esthétique) فهي تهتم بالتحليل المعمّق للفن وطرق إدراكه وتأثيراته ودوره الفكري واستقائه من الاختصاصات الأخرى وهذا الفرع من الفلسفة في صورته المعاصرة كثيراً ما يتقاطع مع علم النفس. يُعتبر الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت (١٧٢٤-١٨٠٤م) أول من نظّر للإستطيقا في كتابه المترجم للعربية تحت عنوان: «نقد العقل الخالص» ١٧٨١، كما أنه هو أول من أطلق تسمية الفنون التشكيلية. لكن جذور فلسفة الجمال تعود إلى تأملات أفلاطون وأرسطو ضمن نظرياتهم في فلسفة الأخلاق فيما يتعلق بمفهوم الجميل le beau والذي سيتغير تدريجياً حتى لتبدو الإستطيقا في القرن العشرين منفصلة عن هذا المفهوم وتصبح مرتبطة بتعاريف الابداع والفن. و أرغب هنا بتسجيل فكرة تلح مراراً حول استخدام مصطلح «علم الجمال» معادلاً لـ esthétique ، وقد درج هذا الاستخدام و تكرّس في المشرق العربي (أعتقد أن الأمر يختلف قليلا في المغرب العربي) مع ترجمة «مدخل إلى علم الجمال» لهيغل من قبل المفكر جورج طرابيشي، وله فضل كبير لقيامه بالترجمة. لكن إشكالية هذه الصياغة أنها توحي بالتحديد بما هو «علم» وما هو «جميل» علماً أن المشاغل العملية للاستطيقا هي مشاغل فلسفية، وأن معنى «الجمال» في الفن متغير. والحقيقة أن طرابيشي يحدد منذ السطور الأولى أن «الإستطيقا» هي «فلسفة الجمال»، لكن يبدو أن العنوان كان كفيلاً بإشاعة مصطلح «علم الجمال» كمعادل لمصطلح esthétique..

ثم كان للفيلسوف الفرنسي دوني ديدروDenis Diderot (١٧١٣-١٧٨٤م) دوراً أساسياً في تأسيس **النقد الفني**، حيث تعتبر مناظراته ونقاشاته المفتوحة خلال الصالونات الفنية بالإضافة لكتاباته، من العتبات الأولى التي مهّدت للنقد. مع العلم أن النقد في تلك المرحلة كان قريبا جدا من الفلسفة. النقد الفني مكرّس غالبا لإنشاء المقارنات وتوضيح المسارات ومحاولة تصنيفها مستنيراً بتاريخ وفلسفة الفن على حد سواء، لكن ما يميزه، أنه يطلق أحكاما ومعاييرا وتصنيفات، وللكاتب أن يطرح وجهة نظره التقييمية، والنقد يهدف الوصول إلى أكبر عدد ممكن من القراء على اختلاف تخصصاتهم ومستوياتهم. ومن هنا فهو كقالب فكري أكثر خطورة لأنه يخاطب الذائقة العامة ويوجهها.